

فلسفة الأسماء

للأستاذ عباس محمود العقاد

ولعلنا نمود إلى بيان بعضه في مقال آخر، ولكنني أردت في هذا المقال أن أقف عند ملاحظة لاحظها على أسماء الخدم والخصيان في قصر الأميرة نازلي وغيره من القصور، وهي أنها محصورة في محاكاة الجواهر والرياحين قلما تخرج عنها، لأنني عنيت بهذه الأسماء في بعض الأوقات ودار البحث فيها بيني وبين أناس من المشتغلين بعلم النفس في المدارس المصرية العليا، فملأوها تعليلاً يخالف ما اعتقدت ولا يوافق التواتر عن تاريخ الزنوج والعبيد

كنا في إحدى المكتبات العامة فدخل إليها خادم زنجي له اسم من أسماء الجواهر، فقال أستاذ واقف معنا: ألا ترون «مركب النقص يفعل فعله في أسماء هؤلاء الخدم؟ إنهم يشعرون بما لهم من بخص القيمة فيموضونها بنفاسة الأسماء!»

وكان هذا التعليل يستقيم على ذلك الوجه لو أن الخدم الزنوج يختارون الأسماء لأنفسهم ولا يختارها لهم النخاسون والسادة الذين يشترونهم، ولكن الواقع أنهم يسمون بغير علم منهم، وعلى غير معرفة باللغة العربية ولا بأسماء الجواهر والرياحين فيها أو في غيرها

وإنما الحقيقة على ما يبدو لي أن رغبة السادة هي الملاحظة في التسمية لا رغبة العبيد والخدم البعيين، ولهذا يقصرون تسمية العبيد على نوع من أربعة أنواع بين الأسماء: التفتيات النفيسة وما شابهها من الرياحين الجميلة، أو ألفاظ التفاؤل، أو الشهور والأيام التي تم فيها الشراء أو تمت فيها الولادة، وإلا فكلمة عبد مضافاً إليها اسم من أسماء الله الحسنى كعبد الله وعبد الكريم وعبد الباسط وما يشمر بالتفاؤل والدعاء خاصة

فالخصيان والعبيد يسمون بجوهر وفيروز ومرجان وباقوت ولؤلؤ وألماس كأنهم قنية نفيسة يباهي بها صاحبها؛ ويلحق بهذا تسميتهم برمحان وكافور وزرجس كأنهم من أدوات التجميل والزينة في البيوت

فإن لم يكن هذا فهم يسمون بما يدل على التفاؤل والاستبشار بالغير بعد شرائهم، فيدعونهم بسعيد وبخيت وسرور وفرحات وقدم خير وخوش قدم وما إلى ذلك من ألفاظ التمني والرجاء؛ والملاحظ في ذلك هم المالكون كما أسلفنا لا العبيد والحواري

أقام السير رونالد ستورز طويلاً في القاهرة، واشترك في كثير من حوادث مصر والشرق الأدنى قبل الحرب المظلمى وبعدها، وأعطى نفسه نصيباً وافياً من النعمة بالأدب والفنون ولا سيما الموسيقى والتصوير إلى جانب اشتغاله بالسياسة خافها وظاهرها. وقد لقيته مرة أيام البحث في تحويل «الأوقاف» من ديوان إلى نظارة، وكان يومئذ «سكرتيراً شرقياً» لدار الوكالة البريطانية، فبدأنا الكلام بروايات برناردشو والتقد الانجليزي الحديث، ثم استطرنا إلى أعمال الاحتلال والادارة الوطنية فقال: أظن أن ديوان الأوقاف غنثل لأنه المصلحة الوحيدة التي ليس عليها رقابة أجنبية؛ ولا أدري أكانت هفوة لسان منه أم كانت سبباً لتورى واختباراً لقدار ما يستبيحه من الأقوال والآراء على مسمع منى في صدد الأوقاف وتحويلها إلى رقابة الحكومة. فقلت له: إن المجلس البلدى الاسكندري أعظم اختلالاً من ديوان الأوقاف وهو مملوء بالرقابة الأجنبية. فاستدرك كلامه الأول وأخذنا في حديث آخر، وانصرفت وهو يقول بعد انصرافي للأستاذ حسين روى الذى كان واسطة التعارف بينه وبينى: «صاحبك لا يزال في بداية الشباب»

ولم أره بعد ذلك، ولكنى سمعت بمشروعاته الكثيرة ومنها ما حدثني به في تلك الزيارة، كإحياء صحيفة «المؤيد» وإنشاء بعض الصلات الأدبية والفكرية بين الغرب والشرق على أيدي المثقفين من الأوربيين والمصريين. ثم وصل إلينا في هذا الشهر كتابه الذى أسماه «تشرقيات» أو مشرقيات، وضمنه تاريخ حياته في مصر وفلسطين وقبرس وبلاد العرب وغيرها من الأقطار الشرقية القريبة، فإذا هو كتاب حافل بالملاحظات واللمحات كما ينتظر من تعليقات رجل سياسى فنان حسن المراقبة للناس والمتابعة للحوادث والأحوال. ولقد أخطأ في بعض هذه الملاحظات واللمحات خطأ ربما ساقه إليه حب الزخرفة والتنميق.

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فأسماء العبيد تكثر فيها أسماء الأيام والشهور والمواسم مثل خيس وجمعة وشعبان ورمضان ومحرم وعيد وريبع ، لأن مالكيهم حين يشترونهم لا يعرفون لهم سمة يسمونهم بها غير اسم اليوم أو الشهر الذي كان فيه الشراء

عنيت باستقصاء هذه الأسماء ودلالاتها في بلدي أسوان حيث تعيش جمهرة من الزوج السود ، وحيث يتدرج لا يكون فيه عبد أو جارية من بقايا أيام الدراويش

ثم التفت إلى الأسوانيين أنفسهم فتبين لي من أسمائهم وحدها أن البلدة « عصابة أم » محببة يلتقي فيها أناس ترجع أصولهم إلى جميع القارات ما عدا القارة الأمريكية ، فمنهم من هو في أصله تركي أو كردي أو من فارس وأعلى العراق ، ومنهم من هو عربي أو مغربي أو حبشي ، ومنهم من هو مجري أو بشتاني أو من أهل البلقان ، وبعضهم لا يذكر هذه الأصول وإن دلت عليها حروف وإضافات في الألقاب

على أنني لم أكن أحفل بالدلالات الجغرافية والتاريخية كما كنت أحفل بالدلالات النفسية والاجتماعية ، ففي هذه دليل أمتع من كل دليل على قرابة الإنسان وتشابه العقائد والخوارج بين البشر وإن باعدت بينهم البحار والصحارى وآماد الدهور

كنت أعجب لأناس يدعون بأسماء الكلاب والحشرات ، وأحسب أنها ألقاب تحقير أطلقها عليهم الأعداء أو التهكمون الماجنون ثم غلبت عليهم فعمروا بها بدلا من أسمائهم ، ولكنني علمت أن أسماء الكلاب والحشرات هي أسمائهم التي دعاهم بها آبائهم وأمهاتهم ، وأن الآباء والأمهات قصدوا إلى ذلك قصداً ليعيش لهم أولئك الأبناء ، كأنما يحقرونهم ويشبهونهم بالحيوان الأعجم والحشرة المهينة ليزهد فيهم الموت ويأنف من أخذهم إليه والعجيب أن هذه العقيدة كانت سارية في يونان القديمة ومصر القديمة والشرق القديم ، ولا تزال سارية حتى اليوم في بعض القبائل الأفريقية التي تؤمن بالأرواح الشريرة وتخاف منها على أطفالها ومغارها ، وتحصنهم منها بحصنات شتى إحداها حقارة الأسماء أو بشاعتها . ولا شك أن اسم « معاوية » مثلا وهي الكلبة التي تماوى الكلاب يمت بصلة إلى هذه العقيدة ،

كما يمت إليها اسم هريرة وما إليه

ولحقارة الأسماء وبشاعتها سبب آخر غير تهديد الأرواح الشريرة فيها ، وذلك هو التخويف بها أو احترام « الطواطم » المعبودة حيث كان الأقدمون يتركون بها ويمتقدون أن أسلافهم من سلالتها

ففي القبائل المغاتلة التي تعيش على الغارة ولا تزال في خوف من الاغارة عليها يسمى الرجل بما يكره الأعداء ، وترى بينهم من يدعونه ذئبا أو أسداً أو حنظلة أو جرة أو حربا وما إلى ذلك من المخوفات والمنغرات

وفي القبائل التي تؤمن أو كانت تؤمن « بالطواطم » يسمى الرجل كلباً أو ثعلباً أو سقراً أو نسراً كما يتفق من أصول الطواطم القديمة الباقية بناوينا وان نسبها أبناء القبيلة

ويقول السائحون بين القبائل التي على الفطرة إنهم يكرهون البوح بأسمائهم ويستريون بمن يسألهم عنها ، لاعتقادهم أن الاسم جزء من الإنسان من عرفه استطاع أن يسلط على صاحبه أرواح الشر والمرض واتخذ هدفاً يقذف عليه المتاعب والملمات . ونحن المتحضرين المحدثين نحسب أننا بعيدون مترفعون عن هذه الطبقة المسفة من طبقات العقول الآدمية ، حتى نسمع « سحاراً » يسأل عن اسم المقصود بالسحر واسم أمه فنعلم أن المسافة بيننا وبين الفطرين أقرب مما نتوهم ، ولا سيما في سراديب الغلام التي يهبط إليها من يهبطون ساعة الفزع أو ساعة الضئينة

ولارب أن حياة الأمة بين ماضيها وحاضرها تتمثل كثيراً في أسماء أبنائها ؛ فنعلم أن الأقوام التي تنحصر أسماؤها في الظواهر الطبيعية مهابية كانت أو أرضية إنما هي أقوام فطرية لم تدرك من العلامات غير هذه الظواهر لتمييز الرجال والنساء ، وأن الأقوام التي تظهر فيها أسماء الصناعات كالنجار والحداد والقصاب والزيات والمطار والعقاد قد تقدمت أشواطاً في الحضارة ، وأن الأقوام التي تظهر فيها المناوين الاجتماعية قد عرفت بذخ الملك وألقاب التشريف ومراتب الطبقات ، وأن الأقوام التي يذكر فيها الحرب والبطن والعداء قد درجت على النزو ورعاية الماشية ، والتي يذكر فيها الهدى والرشد والمصالح